الأعيان الذين وجدوا في الاستعمار فرصة لنيل المكاسب والاغتناء (مع العلم أن بلاده قد أفشلت حملات إسبانية كبرى أهمها سنة 1541 و1775 كان يمكن، لو نجحت، أن تجعل مصير الجزائر مشابهاً لبلدان أميركا اللاتينية). هذا السلوك نجده يتكرر أمام صدمات هزائم أخرى في منطقتنا من 1967 مروراً باحتلال بيروت وصولاً إلى سقوط بغداد، وكما سفّه الأمير الشاعر عبد القادر الجزائري بمقاومته، ثقافة الهزيمة التي حاول بوضربة وأترابه من المثقفين التابعين زرعها في القرن التاسع عشر، فإن ثقافة المقاومة ظلت تعيد إنتاج نفسها في لبنان والعراق وسوريا في مواجهة «ثقافة ما بعد 67» الانهزامية.

الإنسانوية ووهم التعايش

انتقاد بوجدرة في كتابه لتبنّي الروائي كمال داود لفكرة «إعادة الاعتبار» لألبير كامو، المولود في الجزائر، من خلال عمله الأدبي الأخير، ولرواية ياسمينة خضرا (اسم مستعار للكاتب محمد مولسهول) بعنوان «فضل الليل على النهار»، جاء من منطلق محاولتهما أولاً التعتيم على حقيقة العلاقة القائمة بين سكان الجزائر في الفترة الاستعمارية، بين مستوطنين من أصول أوروبية ويهودية (أصدرت الإدارة الاستعمارية مرسوم كريميو سنة 1870 الذي منح لليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية)، يملكون كل مقدرات البلاد الملحقة باقتصاد المتروبول، وبين «المسلمين الجزائريين» أو «الانديجان/ الاهالي» الغارقين في الفقر والجهل والتخلف، وثانياً لإحياء فكرة «التعايش بين كل أبناء الجزائر».

ليس أمراً معقداً كشف الوهم الكامن وراء سردية التعايش هذه، لأنه يكفي أن نعرف أنه لا يتم استحضار أسماء الرفاق من ذوي الأصول الأوروبية الذين اختاروا خندق الثورة الجزائرية سائرين على درب جان بول سارتر، وبعضهم حمل السلاح الى جانبها واستُشهد كهنري مايو وفرناند ايفتون وموريس أودان وغيرهم، إنما ما يهم رواد التعايش هو ألبير كامو الذي لم يكن مستعداً للحظة أن يخسر وضعه كـ«جزائري» من الدرجة الأولى ليتساوى بباقي «الجزائريين المتوحشين». الهوية الجزائرية الحقيقية إذاً متعلقة بالموقف من الاستعمار والمقاومة، فهي لفظت المسلمين الحَرْكَي (العملاء) وضمّت أوروبيين، وجعلت من فرانز فانون المارتينيكي أيقونةً لها، هذا هو التعايش الحقيقي، وليس تلك المحاولات البائسة التي قادها بعض المثقفين الجزائريين بعد أكثر من سنة من اندلاع حرب التحرير بخطاب إنسانوي باسم «الأخوة الجزائرية» يدعو للهدنة واللاعنف، وهي ذات اللغة التعايشية التي نسمعها في فلسطين اليوم ويتم من خلالها الترويج للتطبيع ونبذ مشاعر الرفض لكيانٍ قام على الإبادة والنهب باسم المساواة والتسامح، وهي بالمناسبة اللغة التي كتب بها ياسمينة خضرا رواية «الهجوم» والتي حوّلها المخرج اللبناني زياد دويري إلى فيلم صوّره في «إسرائيل». الطريف أن الكاتب أيضاً، مثل زميله اللبناني الذي «شرب حبّ فلسطين مع حليب أمه»، اعتبر روايته دفاعاً عن القضية الفلسطينية، فهو لا يصفق للفلسطينيين كما قال، لكنه يدافع عنهم بطريقة ذكية.

عندما تصدر هذه اللغة الإنسانوية عن المثقف الغرباوي، على حد تعبير هادي العلوي، أو «الانديجاني الجديد» كما كان يُسميهم رضا مالك، بشكل انتقائي، فتغيب عن اليمن التي قضى فيها آلاف الأطفال بسبب الكوليرا أو القصف، وتحضر بحدة عندما يتعلق الأمر بدول معادية لأميركا كفنزويلا (بمناسبة زيارة نيكولاس مادورو الجزائر مؤخراً تطوّع بعض هؤلاء للتنديد بها ودعوة الجزائريين للاقتداء بالشعب الفنزويلي الثائر ضد الديكتاتورية) أو كوريا الشمالية، فهذا يعني أن هذا المثقف المُزيّف التّابع، الذي يبيع سحنته واسمه العربي للسيد الغربي، فيظهر في الإعلام الفرنسي كنسخةٍ عربية عن «نجوم الثقافة الفرنسية» كبرنار هنري ليفي (المولود في الجزائر بالمناسبة) أو ايريك زمور وغيرهم، يعرف جيداً موقعه ودوره، وأنّ عليه أن يكون بقلمه ورأيه في خندق الاستعمار وأدواته في منطقتنا، (يعرف بوعلام صنصال مثلاً، الذي زار القدس وارتدى القلنسوة اليهودية أمام حائط المبكى، أنّ عليه عدم انتقاد دول الخليج التي تُجاهر إسرائيل بتحالفها معها، ولا يجد الليبرالي ياسمينة خضرا حرجاً في قبول جائزة نظام تابع ورجعي كنظام آل خليفة في البحرين) ولا يفهم مجتمعه وتراثه وتاريخه إلا كما يفهمه الآخر، هكذا نراه يتبرأ من أي علاقة مع فلسطين أو يحرص على إسماع الغرب ما يستسيغ سماعه حول قضايانا الاجتماعية والثقافية (زَايَد كمال داود مؤخّراً على اليمين الفرنسي المتطرف في موقفه من الحجاب فاعتبره ضغطاً اجتماعياً وطائفياً على المرأة العربية).

> سلوك هذا الصنف من المثقفين كان نتاجاً للسياسة الثقافية التي اعتمدها الاستعمار

الهوية الجزائرية الحقيقية متعلقة بالموقف من الاستعمار والمقاومة (إي بي إي)

خاتمة

في تاريخ الأمم كلها، تُنعت بالعمالة تلك الفئة من المجتمع التي تختار أن تقف في خندق الأعداء، تتحرك وفق مصالحه، تقاتل إلى جانبه أو تبرر له جرائمه. لا شك أن هذا الصنف من المثقفين في منطقتنا هو من هذه الفئة أيضاً التي سرعان ما يتخلى عنها الاستعمار في ساعة الحسم في مشاهد إذلال حقيقية، رأينا نماذج منها مع «الحَرْكَي» في الجزائر وفي الفيتنام، وتكررت في تحرير جنوب لبنان، الخيار، برغم اختلاف السّياق مشرقاً ومغرباً، كان ولا يزال بين من رضخ لثقافة الهزيمة وقرر أن يتخندق مع المشاريع الاستعمارية ويستعلي على أبناء شعبه الفقراء والمظلومين، وبين من آمن بالمقاومة سبيلاً وحيداً لنيل سيادته، والنتيجة التاريخية لكل خيار، برغم كل التلفيق، واضحة.

* كاتب جزائري

اتصال أو تنسيق أو تعاون بين الجيشين العراقي والسوري، الأمر الذي ترتعد منه إسرائيل. ولافتٌ للنظر جداً آخر تصريح رسمي لماتيس حول سوريا حين قال أمام الكونغرس: «سوف تنتصر قواتنا في سوريا لدعم تنظيم سوريا الديموقراطية، طالما أن داعش ما زال موجوداً». يفهم من هذا الكلام الكثير، لكن سنركز على «طالما بقي داعش موجوداً». الولايات المتحدة لا تعتبر «جبهة النصرة» عدواً، كما تعلن زوراً وبهتاناً أن «داعش» عدوها. قد يكون الأصح هو أن جناحاً في «داعش» فقط هو عدو لواشنطن، أما الباقي فقد أنشأتهم ورعتهم واشنطن ومخابراتها وجيشها، ولا شك أن اجتماعات العسكريين الأميركيين في الرقة وجوارها مع قادة من «داعش» أوضحت للأميركيين كيف يقضون على الجناح الذي لا سلطة لهم عليه في التنظيم ودعم الجناح الذي يرتبط بها (هربت قيادات من العراق الى سوريا وهربت من الرقة الى سوريا الداخل ولبنان والأردن قيادات بأعداد كبيرة)، ولذلك فإن الولايات المتحدة تعمل الآن ليل نهار لخلق حالة من الكر والفر والتفجيرات تترافق مع تحرير دير الزور، وقد تلجأ الى غارات ثم «تعتذر عنها» لعرقلة التحرير. لكن اللغم الكبير يكمن في إدلب، ويكمن في «النصرة» وفي الدعم التركي لهذا التنظيم، وهذا أمر خطير.

ولا شك أن روسيا تعي خطورته، لكنني على يقين بأن سوريا وإيران واعيتان تماماً لهذا اللغم وخطورته.

وإذا لخّصنا ما تريده واشنطن ويريده ترامب نقول: ترامب يريد أن يتحكم بثروات الشرق الأوسط وأنظمته وأن تكون إسرائيل شريكاً إمبريالياً له، ولا يمانع أن تحصل روسيا على مكاسب محددة، لكن حصة الأسد يجب أن تكون لواشنطن وتل أبيب. ويعلم ترامب أن هذا الأمر لن يكون ممكناً إلا إذا وجه ضربات كاسحة لإيران وحلفائها، ويرى أن للجيش الإسرائيلي دوراً أساسياً في هذا وسيستخدم أسلحة محرمة دولياً، وسيحاول عزل سوريا عبر أكاذيب أصبحت معروفة مثل استخدام الغاز السام الذي شن ترامب غاراته على قاعدة جوية سورية بالصواريخ العابرة للقارات كعقاب على ما سماه «جريمة خان شيخون». وضمن استراتيجية ترامب وحربه على سوريا دور مهم لـ«النصرة» الذي طلب ترامب من إسرائيل أن توثق علاقاته بها وتمده بما يلزم. وحتى يعرف من لا يعرف علاقة هذه الخطط الأميركية الإسرائيلية بموقف الإدارة الأميركية من أزمة الخليج، نكشف لأول مرة المعلومات الآتية: منذ زمن طويل، أقامت قطر علاقات مع إسرائيل عبر قنوات متعددة، وتوثقت هذه العلاقات عندما أصبح الشيخ حمد وزيراً للخارجية (هو يملك فيلا في هرتسليا كان يقضي فيها استراحات، وله جناح في فندق «هيلتون» محجوز على مدار العام). وبحث الشيخ حمد مع الإسرائيليين أوضاع الشرق الأوسط وإيران، وكان دائماً يقول لأصدقائه من الاستخبارات الإسرائيلية "إننا نقيم علاقات مع إيران، ونحن نعلم كما يعلمون هم أننا نكذب عليهم وأنهم يكذبون علينا". المهم هنا هو أن ابن الأمير طرد أبيه وتبوّأ مركز السلطة، وخرج الأمير «مؤقتاً» وبجيبه مليار و800 مليون دولار «كمصروف». وهنا بدأ العمل التآمري الحقيقي: فقد شكلت لجنة ثلاثية أميركية إسرائيلية قطرية لدراسة أوضاع العالم العربي، والخروج بخطة عمل لإجراء تغيير شامل في المنطقة. وكانت هذه اللجنة وما زالت، تجتمع دورياً في واشنطن لبحث كل بلد عربي على حدة، ولاستعراض أسماء المسؤولين والمعارضين وأسماء الذين يحتمل أن يوافقوا على السير في المخطط الثلاثي. ووضعت اللجنة علامة x على كل مسؤول سيعملون على خلعه (والمهم هنا أن آل سعود قد وضع عليهم علامة x). هذا موضوع طويل، لكن الفكرة الجوهرية أن ما يربط واشنطن بقطر هو اتفاق للعمل على التغيير، استناداً إلى قدرة قطر على تحريك «الإخوان المسلمين» وتحريك تركيا بعدما سيطر عليها «الإخوان»، وهذا الاتفاق موثق ويملك القطريون ذلك كسلاح قوي لا تستطيع واشنطن (حتى الآن)، أن تجازف بعلاقتها بقطر خشية نشر هذه الوثيقة.

لقد اغتال القطريون أكثر من شخص لمجرد اطلاعه على جزء من هذا الاتفاق «سنتطرق إلى هذه اللجنة وما قامت به لاحقاً»، ما يهمنا أن نقوله هنا، هو أن هذا يتعلق بـ«النصرة» في سوريا. أن تتحكم قطر بهذا التنظيم، سواء بشكل مباشر أو في ظل العلم التركي، يجعل من واشنطن أقل رغبة في مساندة حملة محمد بن سلمان وملك البحرين على قطر، إذ برغم أن ترامب جنى تريليون دولار من زيارته للسعودية فإنه لن ينحاز ضد قطر لمصلحة السعودية، ولا شك أن دخول قوات تركية بهذا الحجم وهذه العدة والعتاد هو تنفيذ لما تريده قطر، أي ما تريده اللجنة الثلاثية التي ذكرناها.

إن لعبهم الخطير على هوامش إنجازات الجيش العربي السوري وحلفائه هو نوع من المحاولة البائسة لتغيير مسار الصراع، لكن الأمور لن تسير كما يريدون، وهذا يتطلب أن تبادر القوى المقاومة إلى ضرب «النصرة» بشتى الوسائل وبالهجوم الدفاعي استناداً إلى وحدة معسكر المواجهة الممتد من طهران إلى البحر الأبيض المتوسط.

*سياسي وكاتب فلسطيني

> يريد ترامب أن يتحكم بثروات الشرق الأوسط وأنظمته